﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ كمالِ عظمةِ اللهِ، وكونِهِ الشَّاهدَ على صدقِ النُّبوَّة وسموِّ القدرةِ

لمّا أثبتتِ الآياتُ السّابقةُ كمالَ القدرةِ للّهِ تعالى، وعَظيمَ تصرُّفِهِ، وكمالَ سلطانِهِ، وتمامَ قهرِهِ لعبادِه، جاءت هذه الآيةُ لإثباتِ صدقِ رسالتِهِ ﷺ، وشهادةِ اللّه على ذلك، ويضافُ إلى ذلك أنَّه لمّا أقام الأدلَّةَ على الوحدانيَّة والقدرة، ووصلَ إلى صفة القهر المؤذنِ بالانتقام، لم يبقَ إلّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يستحقّونه من سوءِ العذاب، وإنذارًا به؛ لئلّا يقولوا؛ إذا حلَّ بهم: إنَّه لم يأتِنا نذيرٌ، فقال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡءٍ﴾: أصلهُ: مصدرُ شاءَ، وهو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَرَ عنه، وعند كثيرٍ منَ المتكلِّمينَ هو اسمٌ مُشْتَرَكُ المعنى؛ إذا استُعملَ في اللّه وفي غيره، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم، وإذا وُصِفَ بِهِ اللّهُ تعالى فمعناهُ: شاءٍ[2]، وإذا وصِفَ به غيرُهُ فمعناهُ: المَشيءُ[3]، وعند بعضهم الشَّيءُ: عبارةٌ عن الموجود، وقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/40، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) ضُبطت في المطبوع، مكتبة نزار الباز: ص: 357، بفتح الهمزة من (شاء) والصحيح ما أثبتناه من طبعة د. صفوان داوودي، ص: 471.
(3) الرّاغب، المفردات: (شيء).

[المؤمنون: 14]، وعند بعضهم: المشيئةُ في الأصل: إيجادُ الشَّيء وإصابتُهُ، فالمشيئةُ من الله هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابةُ"[1].

2) ﴿شَهَٰدَةً﴾: الشَّهادةُ: الحضور والمعاينة، يُقالُ: شهدَ الشَّيءَ؛ إذا حضره وعايَنَه، وتُطلَق بمعنى: الإخبار والإعلام، يُقالُ: شَهِد بالأمر: إذا أَخبرَ به، وأعلمَ غيرَه به، فالشَّهادة: إخبارٌ عن علمٍ يحصل عن طريق الحضورِ أو الرُّؤية ونحوِ ذلك. ومن معانيها: العلمُ والرُّؤية والإدراك[2]. وشهادةُ الله: إقامةُ البراهين المثلِجة للصُّدور، موقعةً للعلم، مزيلةً للشَّكِّ، فمن أعظم شهادته إتيانهُ لمعجزاته كالقرآن.. ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18][3].

3) ﴿وَأُوحِيَ﴾: الوحيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّنِه السُّرعةَ، قيل: أَمْرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على سبيلِ الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابةِ. ويقالُ للكلمة الإلهيَّة الَّتي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحيٌ[4]. والوحي: الكتابُ والرِّسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَه، فهو وحيٌ كيف كان، وأوحى الله تعالى، ووحى، قال: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزّلزلة: 5]، وكلُّ ما في باب الوحي، فراجعٌ إلى هذا الأصل، والوحيُ: السَّريعُ، والوحي: الصَّوت[5].

4) ﴿لِأُنذِرَكُم﴾: الإنذارُ: وأصله: الإعلام والإبلاغُ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف، يُقالُ: أنذرتُه أنذره إنذارًا، إذا أعلمتُهُ، فأنا منذرٌ ونذيرٌ: أي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر[6]، والمُنذِر: المُعْلِمُ الَّذي يُعرِّف القومَ بما يكونُ قد دهمهم، من عدوٍّ أو غيره، وهو المخوِّف أيضًا، "والإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّةٍ تتَّسع التَّحفُّظَ من المخوف منه، فإنْ لم تتَّسع له، فهو إعلامٌ وإشعارٌ لا إنذار، وأكثر ما يستعملُ في القرآن في التَّخويفِ من عذاب الله[7]، ومنه قد أعذرَ من أنذرَ، أي: قد بالَغ في العذرِ مَن تقدَّم إليك فأنذرك[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء)، وسميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والمطرّزيّ، المغرب: (شهد).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/233.
(4) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحي)، والمُطرّزيّ، المغرب: (وحى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (نذر).
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.

5) ﴿بَلَغَ﴾: الإبلاغُ: الإيصال، يُقال: بَلَّغَه، وأبلغَه السَّلامَ يُبَلِّغُه بلاغًا وتبليغًا وإبلاغًا؛ إذا أوصله، وأصله مِنَ البلوغِ، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا منَ الأمور المقدَّرة، وربَّما يعبَّر بهِ عنِ المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه[1]، ويأتي الإبلاغُ بمعنى الإخبارِ والإنباءِ، تقول: بلَّغتُ الشَّيء، أي: أخبَرتُ به، ونشَرتُه بين النَّاس، ومن معانيه أيضًا: الإعلامُ والنَّقل[2].

6) ﴿ءَالِهَةً﴾: من أَلِهَ يألهُ؛ إذا تحيَّر؛ إذِ العقول تتحَيَّر في معرفته، وقيل: مِن أله الفصيل إذا أولِعَ بأمِّه؛ إذِ العبادُ مولعون بالتَّضرُّع إلى اللهِ، وأصلهُ: ولِهَ يولَهُ إلاهةً وأُلوهة وأُلوهيَّة، بضمِّهما، بمعنى: عبد عبادةً، وتألَّه تعبَّد، والإله المعبود، وهو الله (ﷻ)، ثمَّ استعارهُ المشركون لما عبدوه من دونِ الله تعالى منَ الأصنام وغيرهم؛ لاعتقادهم أنَّ العبادة تحقُّ لها، قال سيبويه: الإلهُ أصلُ اسم اللهِ تعالى، فحُذفت الهمزة، وجُعلت الألف واللّام عوضًا لازمًا، فصار بذلك كالاسمِ العلَم، والجمعُ: آلهة. وأَلَه إلاهةً بالكسر، ومنه قولنا: (الله)، وأصلهُ: إلاهٌ على فِعال، بمعنى: مَفعول؛ لأنَّه مألوهٌ، أي: معبود[3].

7) ﴿بَرِيٓءٌ﴾: البراءة: التَّخلُّص منَ الشَّيء، والخروج منه، والمفارقةُ له، يُقال: بَرِئَ مِنَ الدَّين، يبرأُ براءةً؛ إذا تخلَّص منه، وأصلها: التَّباعد مِنَ المكروه، وقيل: القَطعُ، والبراءةُ أيضًا: التَّقصّي ممّا يكره مجاورته، ولذلك قيل: بَرِئْتُ منَ المرض، وبرأتُ من فلانٍ، وتبرَّأْتُ، قال ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التّوبة: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: 4]. ويُطلق على التَّخَلّي والتَّرك، كقولك: برأْتُ منَ الشَّيء، أي: تخلَّيتُ عنه، وتركتُه[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمر الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيء أعظمُ شهادةً على صدق ما جاءَ به؟ ثمَّ يأمره تعالى أن يجيبَهم: إنَّ أكبر الأشياء شهادةً هو اللهُ تعالى، هو الَّذي لا يجوز

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(3) سيبويه، الكتاب: 2/196، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (أله).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (برأ).

أن يقعَ في شهادته السَّهو والخطأُ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ ﷻ بينه وبينهم، وهو سبحانه قد أوحى إليه هذا القرآنَ؛ لينذرَهم به منَ العذابِ، وينذرَ كلَّ مَن بلغه القرآنُ، ثمَّ أمره أن يسأل هؤلاءِ المكذِّبين: هل هم يشهدون أنَّ مع اللّه تعالى آلهةً غيرهُ تستحقُّ أن تُعبَد؟ فإن شهدوا بذلك، فليقل لهم: إنَّه لا يشهد معهم، إنَّما هو معبودٌ واحد، هو الَّذي يستحقُّ العبادة ﷻ، وأنَّه ﷻ بريءٌ ممّا يشركون[1].

شهادةُ الله، هي أكبرُ شهادةٍ؛ لأنَّه لا كذبَ فيها ولا خطأَ ولا زورَ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ قطعِ قولهِ تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ عن الجملةِ قبلها:

لم تعطف؛ لأنَّها استئنافيَّة ابتدائيَّة، متَّصلة بما قبلَها من جهة المعنى؛ فالآيةُ السّابقة فيها استدلال على كمال ألوهيَّته وسلطانهِ سبحانه؛ فهو القاهرُ فوق عبادهِ، وهذه الآيةُ إثباتُ صدقِ رسالةِ سيِّدنا محمَّد ﷺ[2].

تثبيتُ الله لنبيِّه ﷺ، بشهادتهِ على صدقهِ

سرُّ البدءِ بقوله: ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾:

بدأتِ الآيةُ بالفعل ﴿قُلْ﴾، وتكرَّر ذلكَ في الآيةِ أربعَ مرّاتٍ، والغرضُ منه تلقينُ النَّبيِّ ﷺ الحجَّةَ؛ ليضربَ بها وجهَ خصومهِ، بحيث تأخذُ أسماعَهم وقلوبهم؛ فلا يستطيعون التَّنكُّر لها أو التَّفلُّت منها، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمام بما بعد القولِ، إذ الغايةُ من إيرادِ القول، ليستِ الأمرَ بالقول في حدِّ ذاته، بل ما يتضمَّنه القولُ المراد تبليغهُ من أحكام وحِكَم، سوف تنفع المبَلَّغينَ، وتصحِّح عقائدَهم، وفهمَهم للحقائقِ.

أسلوبُ التَّلقين بلفظ (قل) منَ الأساليبِ البلاغيَّةِ في القرآن الكريم

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمر ﴿قُلْ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿قُلْ﴾ أمر منَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ بسؤال قومه، وذلك

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 130، والقسم العلمي، بمؤسسة الدّرر السّنيّة، التّفسير المحرّر للقرآن الكريم: 5/3232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.

الكلمةُ المأمورُ بها، طمأنينةٌ في القلب، ولطفٌ من الرَّبِّ

أنَّ السُّؤال يبعث النَّفس على طلب الجواب، وتَبيُّن ما سُئل عنه، وقد أفادَ الفعل ﴿قُلْ﴾ التَّنبيهَ بأنَّ القول المحكيَّ به ذو أهمّيَّة بالغةٍ، أو هو رسالةٌ خاصَّة يجب تبليغُها فور تلقّيها، ومواجهةُ المقول له بها. وفيها تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ من ربِّه، ووضع للكلمة الَّتي ينبغي أن يقولها على لسانهِ، وفي قلبه، يتلقّاها منَ اللّٰه، فتلتقي مع الكلمة الَّتي يريد أن يقولها، فإذا هي نورٌ في قلبه، وقوَّةٌ في عزمه، وطمأنينة في صدره، ولطفٌ عظيم من ألطاف ربِّه. ومن جهةٍ أخرى، فقد دلَّ تكرار ﴿قُلْ﴾ في الآية مع كلِّ قولٍ منَ اللّٰه تعالى لهم، على كمال عنايتهِ، وتمام رعايتهِ للنَّبيِّ ﷺ، حيث يجد مع كلِّ نَفَس يتنفَّسه وحْيَ السَّماءِ، يقول له: ﴿قُلْ﴾.. ﴿قُلْ﴾.. ﴿قُلْ﴾.. وبهذا يشتدُّ عزمه، وتثبت في لقاء الكافرين قَدَمُه[1].

الغرضُ من استعمالِ الاستفهامِ ﴿أَيُّ﴾:

من مقاصدِ الاستفهامِ إعدادُ السَّامعين لتلقِّي ما يَرِدُ بعدهُ

في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾: ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام، يُطلَب به بيانُ أحد المشتركاتِ فيما أُضيفَ إليه هذا الاستفهامُ، والمضاف إليه هنا، هو ﴿شَيْءٍ﴾ المفسَّر بأنَّه من نوع الشَّهادةِ، وقد حمَل هذا الاستفهام تقريعًا شديدًا، ليتنبَّه الغافل، ويلتفتَ المُعرض، ويخلو المشغولُ، فهو يأتي لإعداد السّامعين، لتلقّي ما يَرِدُ بعده. والاستفهام هنا مجازيٌّ، والأصل فيه أنَّه لا يُذكر له جوابٌ، وإنَّما يوكَل الجوابُ فيه إلى نفوس المُخاطَبين، لتذهبَ في تصوُّره كلَّ مَذهَب، ولكن في النَّظم القرآنيِّ، نجد إجاباتٍ مذكورةً لاستفهامات مجازيَّة على خلاف الأصل الَّذي أشرنا إليه، ولهذا الذِّكر مقتضًى بلاغيٌّ، رُبَّما كان مُطَّرِدًا في كلِّ استفهامٍ مجازيٍّ ذُكرت إجابته[2].

(1) الواحديّ، الوسيط: 8/33، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/146، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/166، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

دلالةُ الاستفهام في الرَّدِّ على شُبهِ المشركين:

السُّؤالُ تبكيتٌ لمن كفرَ، وتأديبٌ لمن فجرَ

في قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: استعمل القرآنُ الكريم أسلوبَ الاستفهام في تقريرِ ما يريده من إبطالِ شُبَه المشركين، على نبوَّته ﷺ، والغرضُ تبكيتُ المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بنبوَّته ﷺ، والمعنى: (ما أعظمُ شاهد يمكنُكم إحضارُه ليشهد بصدق دعوى النُّبوَّة؟).

ولعلّ هذا السؤال هو مفتاح الحوار بين النبي ﷺ وبين المشركين لإقامة الحُجَّة الواضحة؛ أي: (قل لهم يامحمد) في حوار عقليٍّ هادئٍ: (أيُّ شيءٍ شهادتُه في نفوسكم هي أكبرُ شهادةٍ في الوجود كلِّه، تريدون أن يشهدَ لي بأنّي صادقٌ فيما أُبلِّغ عنه؟).

بلاغةُ القرآنِ في إثبات نبوَّته ﷺ:

أسبابُ نزولِ الآيةِ، مبيِّنةً حجمَ التَّحدِّي بينهُ وبينَ الكفَّارِ

أجابَ القرآنُ الكريم على ما قالهُ رؤساءُ الشِّرك، في مكَّةَ للنَّبيِّ ﷺ، لمّا قالوا له: يا محمَّد، ما نرى أحدًا مصدِّقك بما تقول، فأرِنا مَن يشهد أنَّك رسولُ الله؛ فكان هذا الجواب القاطع بشهادةِ الله لنبيِّه بنبوَّته ﷺ، وكفى بها شهادةً؛ فبدأ بقوله: ﴿قُلۡ﴾؛ ليعلنَ بصوت عالٍ أنَّه رسول الله، والكونُ كلُّه يشهد بذلك[1].

دلالةُ أمرِ الله لنبيِّه بمباشرة البلاغِ بالقولِ:

شهادةُ اللهِ يقينٌ بصدقِ محمَّدٍ الأكرمِ، وبيقين معجزتِهِ القاهرة

في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: آثرَ القرآنُ الكريمُ أن يكونَ صدورُ الإعلان مباشرةً بنبوَّته عن طريق الرَّسولِ الأكرم ﷺ نفسه، وفي ذلك تثبيتٌ واعترافٌ بنبوَّته ﷺ، قال ابن عبّاسٍ: قال

(1) أخرج ابن إسحاق وابن جرير، عن ابن عبّاس، قال: جاء النّحام بن زيد، وقروم بن كعب، وبحريّ بن عمر، فقالوا: يا محمَّد، ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله في قولهم: قُلْ: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، وقال الكلبيّ: إن رؤساء مكّة قالوا: يا محمّد، ما نرى أحدًا يصدّقك بما تقول من أمر الرّسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنّصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذِكر ولا صفة، فأرِنا من يشهد لك أنَّك رسول، كما تزعم! فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الحسن البصريّ وغيره: إنَّ المشركين قالوا للنّبيّ ﷺ: من يشهد لك بأنّك رسول الله؟ فنزلت الآية. ينظر: الزّحيليّ، التّفسير المنير: 7/156.

اللّه لنبيِّه محمَّد ﷺ، قل لهم: أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً؟ فإن أجابوك، وإلّا فقل لهم: اللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم، قال ابنُ جُزيٍّ: "والمقصودُ بالآيةِ الاستشهادُ باللّه - الَّذي هو أكبر شهادة - على صدقِ رسول اللّه ﷺ، وشهادةُ اللّه بهذا، هي علمُه بصحَّة نبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ، وإظهار معجزتِه الدّالَّة على صدقه"[1].

استعمالُ لفظةِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

دلالتها على الشُّمول والإحاطة

أوثر لفظُ ﴿شَيۡءٖ﴾ في الآية؛ لأنَّه يفيد الشُّمولَ والإحاطة والاستقصاء، فهو اسمٌ عامٌّ منَ الأجناس العالية، ذاتِ العموم الكثير، قيل: هو الموجودُ، وقيل: هو ما يُعلم ويصحُّ وجوده، والأظهرُ في تعريفه أنَّه الأمر الَّذي يُعلم، ويجري عليه الإخبارُ، سواءٌ كان موجودًا أو صفة موجود، أو معنى يُتعقَّلُ ويُتحاوَر فيه[2].

دلالةُ إيثارِ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ دون لفظِ (شهيد) في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٖ﴾:

لفظُ (شيء) عامٌّ، يصدقُ فيه كونه حقيقةً متى صدقَ عليه كونُه شيئًا

آثر القرآنُ استعمالَ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٖ﴾ وأراد: أيَّ شهيدٍ، فوضع "شيئًا" مقام "شهيد"؛ ليبالغَ في التَّعميم، وذلك أنَّه لو قيل: أيُّ شهيدٍ أكبر شهادة؟ خصَّ بالشّاهد المتعارف، ومن يُقال له: (شهيدٌ) فيعمُّ؛ ليعرض ما يصلحُ للشَّهادة من أيِّ جنس كان، مُتعارفًا وغيرَ متعارفٍ، فيكون أدخلَ في المبالغة[3]، ويرى الرّازيُّ أنَّ "لفظ الشَّيء أعمُّ الألفاظ، ومتى صدق الخاصُّ؛ صدق العامُّ، فمتى صدق فيه كونهُ ذاتًا وحقيقةً؛ وجب أن يصدقَ عليه كونهُ شيئًا"[4].

---

(1) ابن جُزيّ، التسهيل: 2/5.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/52.

(3) الواحديّ، البسيط: 8/47، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/43.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿أَكۡبَرُ﴾ دون أعظمَ:

شهادةُ اللهِ أكبرُ شـهـادةً؛ لأنَّـها صادرةٌ عن ذاتٍ هـي الـكـمـالُ المطلَق

في قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَكۡبَرُ﴾ دون (أعظم)؛ لأنَّه اعتبرَ فيه المنزلة والرِّفعةَ كما في هذه الآية؛ ولأنَّه أقوى وأعدلُ في جنس الشَّهادات؛ لأنَّ كمالَ الشَّهادة يتأتَّى من رفعة صاحب الشَّهادة ومنزلته، ولأنَّه لا يجري فيها الخطأُ ولا السَّهو ولا الكذب، وهو من إطلاقِ ما مدلولهُ عِظمُ الذّات على عِظم المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التّوبة: 72]، وقوَّة الشَّهادة بقوَّة اطمئنان النَّفسِ إليها، وتصديق مضمونها، وقيل: معناها أفضلُ؛ لأنَّ مراتبَ الشَّهادات في التَّفضيل تتفاوت بمراتبِ الشّاهدين[1].

دلالةُ الشَّهادةِ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

الـشَّـهـادةُ بـابٌ مـن أبـواب حَـلِّ الـخـلافِ في كـلِّ أمرٍ عظيم

علَّم اللّه ﷻ رسولَه ﷺ، عندما اختلف معه قومه أن يلجأَ إلى إقامة الدَّليل، والشَّهادة من أقوى الأدلَّة؛ لأنَّ الشّاهدَ هو الَّذي يبيِّن دعوى المدَّعي في المنازعات والخصومات، وهنا أمر اللّه نبيَّه ﷺ، بأن يحتجَّ عليهم بشهادة اللّهِ الواحد القهّارِ، مؤكِّدًا " بأنَّ أكبرَ الأشياء شهادةً، هو من لا يجوز أن يقعَ في شهادته كذبٌ، ولا خطأٌ، ولا زور، وهو اللّه تعالى، الشَّهيدُ بيني وبينكم"[2]، وشهادتهُ تعالى هي شهادةُ آياتهِ في القرآن، وآياتهِ في الأنفسِ والأكوان، وآياته في العقلِ والوجدان[3].

دلالةُ إيثارِ لفظ (الشَّهادة) دون غيرهِ من الألفاظ:

شـهـادةُ الـلـهِ لـرسوله بصدقِ رسـالـتِـهِ، دامـغٌ لكلِّ افتراءٍ أثيمٍ

آثرَ القرآنُ الكريم لفظَ الشَّهادة؛ لأنَّها لفظ عامٌّ يشمل الشَّهادةَ بالآيات والمعجزات، ومن ذلك ما أيَّد اللّهُ به رسوله منَ المعجزات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/596.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 809.

الحسّيَّة، ومنَ الآياتِ العقليَّة، وعلى رأسِها القرآن الكريم، ومنها شهادةُ كُتب اللّه السّابقةِ، وبشارة الرُّسلِ به، ومنها ما كان بشهادةِ ربِّنا لرسوله في القرآن الكريم برسالتهِ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٥٢﴾ [البقرة: 252]، إلى غيرِ ذلك منَ الآيات الَّتي تثبت شهادةَ اللّه لنبيِّه؛ لذلك كان لفظُ الشَّهادة هو الأَولَى في السّياقِ.

لفظُ الشَّهادةِ يحملُ معنى القسمِ في الآية الكريمةِ:

دلالــةُ الكناية عنِ القسم، في (أُشـهِـد اللـه)، مقرونًا بمعنى الإشهادِ

منَ الإشارات: أنَّ لفظ الشَّهادةِ يحمل معنى القسم؛ لأنَّه لمّا كانت شهادةُ اللّه على صدق الرَّسول ﷺ، غيرَ معلومةٍ للمُخاطَبين المكذِّبين بأنَّه رسول اللّه، صارت شهادةُ اللّه عليهم في معنى القسم، على نحو قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾ [النّور: 8]، أي: أن تُشهِدَ اللّه على كذبِ الزَّوج، أي: أن تَحلِفَ على ذلك باسم اللّه، فإنَّ لفظ (أُشهِد اللّه)، مِن صيغ القسَم إلّا أنَّه إن لم يكن معه معنى الإشهادِ، يكون مجازًا مُرسلًا، وإن كان معه معنى الإشهادِ - كما هنا - فهو كنايةٌ عنِ القسم، مراد منه معنى إشهاد اللّهِ عليهم، وبذلك يظهرُ موقع قوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، أي: أُشهِدُه عليكم[1].

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ على ما قبلها:

اللــهُ تـعـالى موجـودٌ، وهـو بـين الـنَّـبـيِّ وخصومهِ شهيدٌ

لم تعطف هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها جوابٌ، أُمر به المأمور بالسُّؤال على معنى أن يسأل، ثمَّ يبادرُ هو بالجواب، ويكون المرادُ بالسُّؤال التَّقرير، "وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابٌ، أي: (اللّهُ أكبرُ شَهادَةً)، فاللّهُ مبتدأٌ والخبر محذوف، فيكون دليلًا على أنَّه يجوز إطلاق اسم الشَّيء على اللّه تعالى، وهذا لأنَّ الشَّيءَ اسمٌ للموجود، ولا يُطلقُ على المعدوم، واللّه تعالى موجود، فيكون شيئًا، ولذا تقول:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166 - 167.

(اللّه تعالى شيء لا كالأشياء)، ثمَّ ابتدأ ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي: هو شهيدٌ بيني وبينكم"[1].

دلالةُ الجوابِ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾:

حَـذْفُ المُرَتَّـبِ عليه، لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا في الآيةِ الكريمة

هذه الجملةُ جوابٌ للسُّؤال في قولهِ تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾؛ ولذلك فُصِلَت جملته المصدَّرة بـ ﴿قُلۡ﴾، وكذلك هي أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأن يتولَّى الجواب بنفسه؛ إمّا للإيذانِ بتعيُّنه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيرهِ؛ وإمّا لأنَّهم ربَّما يتلعثمون فيه لا لتردُّدهم في أنَّه أكبرُ من كلِّ شيءٍ، بل في كونه شهيدًا في هذا الشَّأن، ووقع قوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جوابًا على لسانهم؛ لأنَّه مُرتَّب على السُّؤال، وهو المقصودُ منه، فالتَّقدير: قل شهادةُ اللّه أكبرُ شهادةً، فاللّه شهيدٌ بيني وبينكم، فَحَذَفَ المُرَتَّبَ عليه لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا، كما هو مُقتضى جزالةِ أسلوب الإلجاءِ والجَدَلِ[2].

دلالةُ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤال في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

القـرآنُ يعلِّم الدَّاعيةَ حُسنَ التَّخلُّصِ في منازعةِ الخصوم

لمّا كان المرادُ بالسُّؤال الإلجاءَ إلى الإقرار؛ كان الجواب منه ﷺ، إذ لا سبيل إلى الجحدِ فيه، أو المغالطة؛ لذلك لم ينتظرْ ﷺ جوابَهم، بل بادرهم بالجواب تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ مساقَ إبلاغ الحجَّة، وهذا أسلوب مُتَّبع في القرآن الكريم؛ فتارةً لا ينتظر جوابًا منهم - كما هنا - وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكر ما سيجيبونَ به كما في سورة (المؤمنون) في قولهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: 84 - 85]، وما بعدها من آياتٍ[3].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/495.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَهِيدٌ﴾ دون شاهدٍ:

العـدولُ من صيغةٍ إلى أخرى له دلالةٌ مؤثِّرة في المعنى

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ دون (شاهد)؛ لأنَّه على وزن فاعلٍ، وليس فيه معنى المبالغة؛ لذلك عُدل عنه إلى وزن فعيلٍ ﴿شَهِيدٌ﴾، لما فيه من معنى التَّكثيرِ في إثبات الشَّهادةِ، وكأنَّ المعنى: أن قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ موسَى، فكلَّما عانَدَ الكفّارُ رسولَ اللّه، واعترضوا على نبوَّته؛ شهد اللّه له بها لفظًا ومعنًى، وقوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدٌ﴾، "أَي: اللّهُ الَّذي اعترفتم بأنَّه خالق السّماوات والأرض، والظُّلمات والنّور، يشهد لي بالنُّبوَّة بإقامة البراهين، وإنزال القرآن عليَّ"[1].

دلالةُ تكرار (بين) في قولِهِ تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ بدلًا من قوله: (بَيْنَنَا):

دلالـــةٌ عـلى الاحـتـكـامِ إلى الله

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عن أن يقول: (قُلِ اللّهُ شَهيدٌ بَيْنَنا)، إلى تكريرِ كلمة (بين)؛ لأنَّه لمّا أضيفت إلى ياء المتكلِّم، لم يكن بُدٌّ من إعادة (بين)[2]، وكرِّرت أيضًا؛ لتحقيق المقابلة، وللتَّأكيدِ، ومعنى السّياق في ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾، "أَي: يشْهد لي بالحَقِّ، وعَلَيْكُم بالباطِلِ"[3].

دلالةُ تقديمِ ﴿بَيْنِي﴾ في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾:

من فنونِ القولِ في العربيَّة إضافةُ ما يزيل الإلباسَ في اللَّفظ

وجه تقديم ﴿بَيْنِي﴾ في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾: أنَّ اللّه شهيدٌ له، كما هو مقتضى السّياق، فمعنى البَين: أنَّ اللّه شهيدٌ للرَّسول ﷺ بالصِّدق؛ لردِّ إنكارهم رسالتَه، كما هو شأن الشّاهد في الخصومات[4]، وقوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾، وكان الأصلُ: (قُلِ اللّهُ شهيدٌ بَيْنَنا)، فكُرِّرَتْ (بَيْنَ) توكيدًا، وهو نظير قوله:

---

(1) الواحديّ، الوجيز: 1/347.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/91.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

فلئِنْ لَقيتُكَ خاليَيْنِ لتَعْلَمَنْ ***أيّي وأيُّك فارِسُ الأَحْزابِ[1]

والجامع بينها: أنَّه لَمّا أضافَ إلى الياء وحدَها، احتاجَ إلى تكريرِ ذلك المضاف[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

دلَّ هذا التَّعبيرُ على صدْقِ نبوَّته ﷺ في خطابِهِ لأهل مكَّة بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، والوحيُ لا يكون إلّا للنَّبيِّ والرَّسول بمعناه الشَّرعيِّ، ولمّا كان الوحيُ معناه إعلامٌ في خفاء؛ ذكر القرآن وهو أثرُ الوحي الظّاهرِ، وفي ذلك تأكيدٌ على نبوَّته ﷺ وتبكيتٌ لمشركي مكَّة؛ لعدم إيمانهِم بالقرآن؛ لعلمهم بدقَّة ألفاظِهِ، وجمالِ معانيه.

بعثتهُ ﷺ بمعجزةِ القرآن، دليلٌ على صدقِ دعوتِهِ

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ دون غيرِهِ:

اختارَ القرآنُ الكريم فعلَ ﴿وَأُوحِيَ﴾ الَّذي يدلُّ على صدقِ رسالته ﷺ؛ لأنَّ الوحيَ من خصائصِ النُّبوَّة، والمقصودُ هنا الوحي الشَّرعيُّ؛ لإخراج إسناد الوحي إلى بعضِ الأجناسِ الأخرى، مثل: الأرض، والنَّحل، وإلى أمِّ موسى؛ فهو بمعنى الإلهام، وليس وحيًا شرعيًّا، وأيضاً؛ لأنَّ الوحيَ الشَّرعيَّ يلزم فيه التَّبليغ بخلاف الإلهامِ.

وحيُ اللهِ بلاغُ الرُّسلِ عن الحقِّ، مرادهُ من الخلقِ

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أوحي: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، تعلَّق به الجارُّ والمجرور، واسمُ الإشارة المبنيُّ على

كلُّ ادِّعاءٍ للوحي من غيرِ تكليفٍ، هو محضُ ضلالٍ وتزييفٍ

(1) البيت غير منسوب إلى قائل، واستشهد به بعض المفسّرين، مثل: أبي حيان، البحر المحيط: 3/141، والسمين، الدّرّ المصون: 3/167، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/211، والمراغي، تفسير المراغي: 27/91.

ونسبه أبو سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه: 3/168، وأبو إسحاق الشاطبي في شرح الألفية: 4/109، إلى عنترة، وهو غير موجود في ديوانه.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

السُّكون: نائبُ فاعله، القرآنُ: بدلٌ، والجملة معطوفة[1]، وقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ لإفادة الاختصاص، وكمالِ العناية الإلهيَّة، وفيه إشارةٌ إلى تكذيب كلِّ مَن يدَّعي النُّبوَّة منَ البشريَّة إلى يوم القيامة، والسّياق يؤكِّد أنَّ نزولَ الوحي عليه، لكونهِ القدوةَ في البلاغ، "فحَقٌّ على من اتَّبع رسول الله ﷺ، أن يَدْعوَ كالَّذي دعا رسول الله ﷺ، وأن يُنْذِرَ كالَّذي أَنذر، فلم يكن رسول الله ﷺ يقاتل أحدًا من النّاس حتَّى يَدْعوَهُ إلى الإسلام، فإذا أبوا ذلك؛ نَبذ إليهم على سواء"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

عبَّر باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، إشارةً إلى ما هو في ذهنِ المتكلِّم والسّامع، ويؤكِّد ذلك أنَّ لفظَ القرآنِ يُعرَب عطفَ بيان، بعد اسم الإشارةِ، ليبَيِّن المقصود بالإشارة[3]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، وهو شهادة أخرى قاطعةٌ ناصعة؛ فأيُّ شهادةٍ أكبر من هذا تطالبونني بها، وتُلزمونني بإبدائِها؟[4].

الإشـــارةُ إلى الـقـرآنِ لتأكيد مـبـاشـرتـهِ بـالـوحـي، وأنَّـه واقعٌ مَعيشٌ

دلالةُ اختيارِ لفظِ القرآن دون الكتابِ:

جاءَ هذا الاختيار للفظ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ دون الكتابِ؛ للإعلام باختصاصهِ ﷺ بالقرآن، بخلاف لفظ الكتاب، فهو وإن كان يُطلق على القرآن، إلّا أنَّ هذا الاسمَ يُطلق على غيره منَ الكتب السَّماويَّة؛ مثل: التَّوراة والإنجيل، وعند ذلك يظنُّ أعداءُ الإسلام أنَّه أوحي إليه منَ التَّوراةِ والإنجيل، وليس له كتابٌ مستقلٌّ؛ لذلك كان اختيارُ لفظ القرآن بمنزلَةِ الرَّدِّ على كلِّ من يدَّعي في القديم والحديث أنَّه أخذ منَ التَّوراة أو الإنجيل. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه مقروء ومسموع؛ فلا

الـقـرآنُ معلنٌ لـمـن سـمـعَ بـه، ولا عـذرَ لـمـن لـم يؤمن بهِ

(1) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/81، أحمد الدّعاس - وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/294.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1272. والكلام المُقتَبَس للرَّبيع بن أنس.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.

(4) محمّد الخطيب، أوضح التّفاسير: 1/152.

عذرَ للمشركين في عدمِ الإيمان به؛ لأنَّه تحدّاهم أن يأتوا بعشر سوَرٍ أو بسورة من مثله؛ فعجزوا، فضلًا عنِ الإتيانِ بمثله.

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

وحيُ الله تذكيرٌ للنَّاس وتنويرٌ

بُنِي الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعول؛ للعلم بالفاعلِ الَّذي أوحاه إليه، وهو اللّه تعالى، "هذا النَّصُّ فيه المعجزةُ الَّتي تدلُّ على صدق الرَّسول ﷺ، وهو يشتملُ على شهادة اللّه القوليَّة بأنَّه واحدٌ أحد، ليس بوالدٍ ولا ولد، وأنَّه القادر على كلِّ شيءٍ، وأنَّه القاهر فوق عباده، وهو أمرٌ حسّيٌّ يتلى عليهم ليلًا نهارًا، ويقرأ عليهم جهارًا"[1].

دلالةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

الإيجاز أُسلوبٌ يحقِّق المعاني الدَّقيقة ببلاغةٍ أنيقة

في الآية إيجازٌ بالحذفِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، فحذف ضميرَ النَّصب الرّابط للصِّلة؛ لأنَّ حذفَهُ كثيرٌ حسنٌ، وعمومُ ﴿وَمَنۢ﴾ وصِلَتِها يشمل كلَّ مَن يَبلُغُه القرآنُ في جميع العصورِ، والتَّقدير: ومَن بلَغَه هذا القرآن[2]، "والنِّذارة إنَّما تكونُ بذِكْر ما ينذرُهم به من التَّرغيب والتَّرهيب، وببيان الأعمالِ والأقوال الظّاهرة والباطنةِ الَّتي مَن قام بها، فقد قَبِل النِّذارة، فهذا القرآن فيه النِّذارةُ لكم أيُّها المخاطَبون وكلُّ من بلغه القرآنُ إلى يوم القيامة، فإنَّ فيه بيانَ كلِّ ما يحتاج إليه من المطالبِ الإلهيَّة"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّذارة دون البشارةِ في قولِهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾:

النِّذارةُ منهجٌ دعويٌّ مفيدٌ، يعتمده القرآن المجيدُ

اقتصرَ التَّعْبيرُ في الآيةِ على جعل علَّة نزول القرآن للنِّذارة، دون ذكر البشارةِ؛ لأنَّ المُخاطَبين في حال مُكابرتهم الَّتي هي مقامُ الكلام لا يناسبهم إلّا الإنذار، فغايةُ القرآن بالنِّسبة إلى حالهم هي الإنذارُ؛ ولذلك قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، مُصرِّحًا بضمير المُخاطَبين،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2462.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.

ولم يقل: لأُنذِر به، وهم المقصودون ابتداءً من هذا الخطاب. وممّا يذكر في سرِّ التَّعبير بالنِّذارَةِ دونَ البِشارَة، أنَّ القرآن اكتفى بها؛ لأنَّ البشارةَ من روادفِ الإنذار، لاقتران ذِكْرِها بذِكْره، في مواضع كثيرةٍ منَ القرآن؛ فلو ذكر الإنذارَ منفردًا في بعض المواضعِ، تكون البشارةُ ملحوظةً فيها. وأيضًا لمّا لم يكن الكلام مع الكفّار خاصَّة، بل كان عامًّا بقرينة قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾؛ احتيجَ إلى عدم ذكرِ البشارةِ صراحةً؛ لأنَّ أحد الضِّدَّين أسرع حضورًا بالبالِ عند ذكر الضِّدِّ الآخر[1].

دلالةُ اللَّام في قولهِ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ على أنَّ (اللّام) في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ للتَّعليل، وهي لا تُؤْذِنُ بِانْحِصارِ العلَّةِ في مَدْخولها؛ إذ قد تكون للفعلِ المعدَّى بها عللٌ كثيرة[2].

دلالةُ عطف ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على ضميرِ المُخاطَبين ﴿لِأُنذِرَكُم﴾:

دلَّ هذا العطفُ على العموم، والمعنى: لأنذركم به - يا أهل مكَّة - وأُنذرَ كلَّ مَن بلغه القرآن منَ الثَّقلين، "وذلك أنَّ القرآن لمّا كان متواترًا بلفظه ومعناه، كان مَنْ بَلَغه بعده ﷺ، كمن سمعهُ منه، وإن كثُرت الوسائطُ؛ لأنَّه هو الَّذي بلغه بلا زيادةٍ، ولا نقصانٍ"[3].

دلالةُ اختيارِ (من) دون (الَّذي) في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

قيامُ الحجَّة على مَن بلَغَهُ القرآنُ

اختار القرآنُ الكريمُ (مَنْ) دون (الَّذي)؛ لإفادة العموم، في بلاغ الدَّعوةِ، بخلاف (الَّذي)؛ فلا تؤدّي هذا العمومَ، وفيها إشارةٌ إلى عموم بعثتهِ ﷺ للإنس والجنِّ.

(1) القونَويّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 8/41.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/168.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/285.

دلالةُ اختيارِ لفظِ البلاغ دون غيرِهِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغ لفظٌ عامٌّ يندرج تحته السَّماعُ والكتابةُ والإشارة والسُّلوك

اختارَ (البلاغ) دون غيرِه؛ لأنَّه وظيفةُ الرَّسول ﷺ بنصِّ آياتِ القرآنِ الكريم، قال تعالى: ﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الرّعد: 40]، ومن يأتي بعده منَ العلماء يقومون بدور البلاغِ، قال ﷺ: (بلِّغوا عنِّي ولو آيةً)[1]. وإنَّ البلاغ يحمل معنى حُسن الدَّعوة، والدّاعيةُ عليه - أخذًا من دلالةِ هذه المادَّة - ، أن يراعي حال المدعوِّ؛ فيختار الزَّمان المناسب، والكلام المناسب، لكي تؤثِّر دعوته في المَدعوّين، وتصل إلى قلوبهم، وهو منتهى البلاغ، وهو لفظ عامٌّ، تندرج تحته كلُّ طرق البلاغ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن لم تبلغه الدَّعوة الإسلاميَّة؛ فلا إثمَ عليه، وإنَّما إثمه على الَّذين قصَّروا في البلاغ.

التَّعبيرُ بالماضي والمرادُ المستقبل في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

بيان أنَّ دعوةَ البلاغِ عن الله بالغةٌ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ

آثر التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي للإشارة إلى تحقُّق الوقوعِ للبلاغ، وأنَّه على علماء الأمَّة القيام بهذا الواجب، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ، هو أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة يمكِّن الله تعالى لها حتَّى تصلَ في البلاغ إلى ما بلغَ اللَّيل والنَّهار.

دلالةُ حذفِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغُ مهمَّةُ العلماءِ للكون كلِّه، وللبشريَّة بأجمعِها

حُذف الضَّمير؛ ليعطي معنىً أوسعَ في البلاغ، ولا سيَّما أنَّ الدَّعوة عالميَّةٌ للعرب وغير العرب، والبلاغُ يكون على هذا بالقرآنِ أو بترجمة معاني القرآنِ، وعند ذلك تُقام الحجَّة على مَن بلَغَتْه الدَّعوة، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ الأمَّة لوجودِ مَن يقومُ بالبلاغ، وهذا مقصودٌ به علماؤها؛ فهم الَّذين يتحمَّلون قضية البلاغ، و"استُدلَّ به أيضًا على أنَّ أحكام القرآن تعمُّ الموجودين يومَ نزوله، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامةِ"[2].

(1) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (3461)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (6486).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/330.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ دون الخبريِّ:

توبيخُ اللهِ للكافرين دليلٌ على عدمِ رضاه لما استنكرهُ عليهم

استخدم القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالأسلوبِ الإنشائيِّ؛ ليشيرَ إلى أنَّهم وقعوا في جعلهم آلهةً مع الله تعالى وتأكَّد وقوعهُ، ولم ينكروه، ولذلك كان التَّأكيدُ على وقوعِهم في جعلِ آلهة مع الله، ظاهرًا من خلال هذا الأسلوبِ، وإنكار الواقع توبيخٌ[1]، يؤكِّد هذا الغرضَ منَ الاستفهام في الآية أنَّه إنكاريٌّ؛ لتَقريعِهم وتوبيخِهم، وهو يفيد إنكارَيْنِ؛ أحدهما: صريحٌ بأداة الإنكارِ، والآخر: كِنائيٌّ بلازمِ تأكيد الإخبار؛ لغرابة هذا الزَّعم بحيثُ يشكُّ السّامع في صدورهِ منهم، والمقرَّرُ عليه هنا أمر ينكرونه بدلالةِ المقام[2]. وممّا يؤكِّد ذلك أنَّ الفعلَ جاء مضارعًا؛ ليشير إلى استحضار الصّورة الَّتي عليها المشركون، في اتِّخاذ آلهة مع الله، وتجدُّد وقوعِ ذلك منهم.

عِلَّةُ التَّوكيدِ بقولهِ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾:

تأكيدُ الخبرِ بمؤكِّدَيْن دليلٌ على أهميَّتِهِ

أُكِّدَ الخبرُ في الجملة بمؤكِّدَيْن: (إنَّ) واللّام المزحْلَقة؛ ليفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممّا لا يكادُ يُصدِّق السّامعون أنَّهم يشهدونها؛ لاستبعادِ صدورها من عقلاءَ؛ فاحتاج المخبِر عنهم بها إلى تأكيد خبرهِ بمؤكِّدَيْن[3]، وقيل: "هو تقريرٌ لهم من الرَّسول، وهم في هذا الموقفِ، بعد أن أوقفهم بين يدي الله، وأشهدَه عليهم، ومع هذا، فإنَّ العنادَ لا يزال مستوليًا عليهم، وإنَّ اللَّجاج لا يزال يضرب بأمواجهِ فوقهم؛ ولهذا، فإنَّ الرَّسول الكريم، لا ينتظر جوابهم، إذ كان جوابًا منحرفًا عن الحقِّ، بعيدًا عن الهدى.. فليتركهم وشأنَهم، وبين أيديهم دعوة الحقِّ، وأمامهم طريق الهدى، فإنْ أطاعوا؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/459 - 461، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

فقد اهتَدَوا، وإن تولَّوا فإنَّما هم في ضلالٍ وخسران"[1]. وفي هذا التَّساؤل الاستنكاريِّ استقصاءٌ في الإعذار لهم، والتَّوبيخ لهم، وأنَّه تعالى يسألهم إن كانوا سيشهدون أنَّ مع الله آلهةً أخرى، بما يماثلُ شهادته على الحقِّ الَّذي أبانه لهم، وأعطاهُ لهم جليًّا واضحًا لا غبار عليه ؟ وتلك شهادةٌ منهم مستحيلةٌ لاتتأتَّى أبدًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ في الآيةِ الكريمة:

إطلاقُ (لتشهدون) مشاكلةٌ

عبَّر بلفظ ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ للإشارةِ إلى قوَّة الضَّلال في نفوسِهم؛ إذ إنَّهم مع ضلالِ الفكرة الوثنيَّة يعتقدونها أشدَّ الاعتقاد؛ لأنَّ الشَّهادة لا تكون إلّا بالعلم اليقينيِّ، فهم يؤمنون بـ ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ بالشِّرك، أي: بأنَّ مع اللهِ آلهةً أخرى، فإطلاق ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ مشاكلةٌ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قوله: ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾:

الشِّركُ باللهِ ضلالٌ، وشتَّان بين الخالقِ والمخلوقِ

تدلُّ ﴿مَعَ﴾ على أنَّ هذه الآلهة لها دورٌ في عقيدة المشركين؛ فهم يلجؤونَ إليها، ويطلبون منها ما لا يصحُّ طلبُهُ، فكأنَّهم يساوون بينها وبين اللهِ تعالى، تعالى اللهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ويؤكِّدُ هذا المعنى اختيارُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولهِ: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ دون الرَّبِّ.

دلالةُ وصفِ الآلهةِ بالتَّأنيثِ في قولهِ: ﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾:

وصفُ الآلهةِ بلفظِ (أخرى) يدلُّ على بطلانِ عبادتِها وهوانِ أمرِها

الآلهةُ جمعُ إلهٍ، وأُجري عليه الوصفُ بالتَّأنيث تنبيهًا على أنَّها لا تعقل، فإنَّ جمع غير العاقل يكون وصفُه كوصفِ الواحدةِ المؤنَّثة، ووصِفت بـ ﴿أُخْرَىٰ﴾ مع أنَّها جمعٌ، وكان الظّاهر أن توصف بـ (أخَر)، ليوصف الجمعُ بالجمع، ولكن لأنَّها مشتركةٌ في وصفٍ جامع؛ وهو أنَّها أحجارٌ، فهي في المعنى شيءٌ واحدٌ؛ لذا وصفت بما يوصف به الواحدُ، لا بما يوصف به العددُ، والوصف بـ ﴿أُخْرَىٰ﴾

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

فيه إشارةٌ إلى بطلان عبادتها[1]، وإشارةٌ إلى النَّعي على هذه الآلهة لضعفِها، حيث وُصِفت بوصف المؤنَّث الَّذي يدلُّ على الضَّعف دائمًا.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۖ﴾:

التَّوبيخ والتَّهكُّم

عبَّر عن أوثانهم بأنَّها ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۖ﴾، مُجاراةً لهم في زعمهِم الباطلِ، ومبالغةً في توبيخهِم، والتَّهكُّم بهم[2]؛ لأنَّهم خالفوا باحتمال الشَّهادةِ هاتهِ - بأنَّ هناك آلهةً أخرى - ما فطرهم اللّه عليه من التَّوحيدِ، وفي ذلك تناقضت أقوالهُم على إثبات ما يدَّعونَه من أنَّ مع اللّه آلهة أخرى، مع أنَّه لا يقومُ على ما قالوه أدنى شبهة، فضلًا عن الحجج الدّاحضةِ، والدَّعاوى الباطلةِ الَّتي لا يقبلها عقلٌ، ولا يستقيمُ بها منطق[3].

علَّةُ تَكرارِ الأمرِ بـ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

دلالـــةُ اتِّـحـاد المـسـنَـدِ (قـل) والمـسـنـدِ إليـهِ الضَّميرُ المستكنُّ في الفعلين

علَّةُ تَكرارِ الأمر ﴿قُلۡ﴾ في مبتدأ الجملتين سببهُ أنَّ كُلًّا منَ الجملتين موضوعٌ برأسهِ، وأنَّ ما بعد الفعلِ رسالةٌ خاصَّة ذاتُ أهمّيَّةٍ بالغةٍ، تقتضي المبادرة بتبليغها والمواجهة بها، وممّا يؤيِّد هذا المعنى تركُ العطف بين الجملتين: ﴿قُلۡ﴾، ﴿قُلۡ﴾ مع قيام الدّاعي إلى العطف؛ لأنَّ كُلًّا منهما إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، فبينهما التَّوسُّط بين الكمالين، وكان من محسِّنات الوصلِ - أي: العطف بالواو - فيهما اتِّحادُ المسند ﴿قُلۡ﴾ والمسندِ إليه، وهو الضَّميرُ المستكنُّ وجوبًا في الفعلين[4].

دلالةُ أمرِ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بلفظ القولِ ﴿قُلۡ﴾:

لا يضرُّ البحرَ الزَّخَّارَ أن رَمى فيه غلامٌ بأحجارِ

في أمرِ اللّه تعالى له بالقولِ مع التَّنديدِ لهم، والتَّوبيخِ لهم، ما يدعو إلى الاقتداءِ والتَّأسّي به ﷺ، وهو العاقلُ الصّادق الأمين

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والزّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/117، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وطنطاويّ، الوسيط: 5/53.
(3) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/289.

المعروفُ بذلك بينهم جاهليَّةً وإسلامًا، وإن ذهبت اللَّجاجةُ ببعضهم إلى إنكار المعروفِ بلسانه لا بقلبه[1]، وإنكارُ الكمال النَّبويِّ، والتَّطاولُ على مقامهِ العالي، لا يحطُّ من مقامه، ولا ينقص من شأنه، لأنَّهُ ذو فضل وارفٍ، شهدَ به العدوُّ قبل الصَّديق، وما ضرَّه ما شهدتهُ مراحلُ دعوته، من مناوأة ومشاكسة وعدم تصديقٍ، وقد قيل:

ما ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى في الأُفْقِ ساطِعَةً *** ألّا يَرَى نورَها مَنْ لَيْسَ ذا بَصَرِ.

دلالةُ الفصلِ بين قوله: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾، وقولهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

المـــوازاةُ بـينَ نـفـي شـهـادةِ الإشـــــراكِ، وتأكيدِ شهادةِ الوحدانيَّة

لمّا كان قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ جوابًا للاستفهامِ الَّذي في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾، وجملة: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، بيانٌ لجملة ﴿لَّآ أَشْهَدُۚ﴾، فُصِلَت؛ لأنَّها بمنزلةِ عطف البيان؛ لأنَّ معنى ﴿لَّآ أَشْهَدُۚ﴾، بأنَّ معه آلهةً؛ هو معنى أنَّه: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وأُعيدَ فعلُ القولِ لتأكيدِ التَّبليغ[2]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ذُكِرَت هذه الجملةُ بعد نفي الرَّسولِ ﷺ لوجودِ آلهةٍ أخرى، بدليلِ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾؛ فكان ذكرُها لإضافة معنًى جديدٍ، هو إثباتٌ لصفة الوحدانيَّة للّه تعالى، وعلى ذلك يوجدُ فرقٌ بين الجملتين؛ فالأولى نفَت تعدُّد الآلهة، والثّانية أثبتتِ الوحدانيَّة، وقد أُلزِموا الحُجَّةَ بما عندهم من آياتِ الوحدانيَّة، وحجج الرُّبوبيَّة، وقد عرفوا أنَّه خالقهم وخالقُ السّماوات والأرض، به العيشُ، وبه الحياةُ، وبه الموتُ، ومع استبانة ذلك لهم؛ أشركوا مع اللّهِ آلهةً أخرى، ولذا فأنا لا أشهد، وإنَّما أشهد أنَّه إلهٌ واحد[3].

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

التَّعبيرُ بأقوى الأساليبِ لإثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى

تأتي (إنَّما) كما يقولُ العلّامة عبدُ القاهر (رحمه الله): "لخبرٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/42.

لا يجهله المُخاطَب، ولا يدفع صحَّتَه، أو لا يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، وتفسير ذلك: أنَّك تقول للرَّجلِ: (إنَّما هو أخوك)، و(إنَّما هو صاحبك القديم)، لا تقولهُ لمَن يجهل ذلك، ويدفعُ صحَّته، ولكن لِمَن يعلمه، ويُقرُّ به، إلّا أنَّك تريدُ أن تُنَبِّهَه للَّذي يجب عليه من حقِّ الأخِ، وحرمةِ الصّاحب"[1]، ففي الآية نجد المخاطبَ مُنزَّلٌ منزلة (غير المنكِر)، وإن كانوا منكِرين لهذا الأمر، فخاطبهم على أنَّ هذه حقيقةٌ مسلَّمٌ بها، لا ينبغي لأحدٍ أن ينكرَها أو يجهلها، فكلُّ الدَّلائل والآياتِ الكونيَّة تُثبت هذه الحقيقةَ وتؤكِّدها. يضاف إلى ذلك أنَّ الجملة إثباتٌ لوحدانيَّة الله (ﷻ) بأقوى الأساليب؛ وهو القصر؛ لما يتميَّز به هذا الأسلوبُ من قوَّةٍ في التَّأكيد مع الإنجاز. وزِدْ على ذلك ما أفادتهُ (إنَّما) في سياق الآية من تعريضٍ بضلال المشركينَ الَّذين يعدِّدون الآلهةَ الَّتي يعبدونها، وهذا من أدلَّة بطلانِها، إذ لو كان في السّماوات والأرض آلهةٌ غيرُ الله لفسدتا، بل هو إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له[2].

مؤكِّداتُ وجوبِ التَّوحيد في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

وجـوبُ الـبراءةِ مـمَّـا عـليـه المـشـركـون مـنَ الشِّرك

في الآيةِ الكريمةِ تأكيدٌ على إيجاب التَّوحيد، وتصريحٌ ببراءة النَّبيِّ ﷺ ممّا يعبدون، وتنديدٌ شديد بعبادة الأوثان؛ لأنَّ الرَّجُلَ العاقل يتبرَّأ منها، وقد أكَّد براءته بـ (إنَّ)، وبالوصف ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وبـ ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تفيدُ الحصر، ولفظُ ﴿وَاحِدٌ﴾ الصريحُ في التَّوحيد ونفي الشُّركاء، وفيه قطعٌ للمجادلة معهم على طريقة المتاركةِ، فثبتَت دلالةُ هذه الآية على إيجاب التَّوحيدِ، بأعظمِ طرقِ البيان، وأبلغِ وجوه التَّأكيد[3].

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/330.
(2) العُبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، ص: 664.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169 - 170، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.

دلالةُ اختيارِ ﴿بَرِيٓءٌ﴾ دون غيرها في قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مَـن بَـرِئَ من أرجاسِ الشِّركِ؛ ذاقَ صفاءَ التَّوحيدِ

اختارَ لفظَ ﴿بَرِيٓءٌ﴾؛ لأنَّ المادَّة اللُّغويَّة لهذه الكلمة تدلُّ على التَّقصّي ممّا يُكره مجاورتُه؛ لذلك كان استعمالها ظاهرًا في البراءةِ منَ المشركين ومن أعمالِهم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التّوبة: 3]، وقال تعالى على لسانِ سيِّدنا إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزّخرف: 26]، وعلى هذا كان اختيارُ ﴿بَرِيٓءٌ﴾، هو المناسبُ لهذا السّياق؛ فهو يحمل البراءةَ والتَّبرّي منَ المشركين ظاهرًا وباطنًا، وأيضًا للمبالغة في البراءةِ منَ المشركين وشركهم؛ لأنَّها جاءَت على وزن (فَعيلٌ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ منسجمةٌ مع عقيدةِ الرَّسولِ ومهمَّتِهِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، عبَّر في آخر الآيةِ بـ(ما)، ومعناها الموصوليَّة، أي: من أصنامكم الَّتي تشركونَ بها، وفيه حذفُ العائدِ المجرور؛ لأنَّ حرفَ الجرَّ المحذوف مع العائد مُتعيِّنٌ، تقديرهُ: بلا لبسٍ، وذلك هو ضابطُ جوازِ حذف العائدِ المجرور. أو تكون (ما) مصدريَّةً، أي: (من إشراككم باللّه)، وقد أمره بالجَوابِ عقيبَ السُّؤال على أنَّه بريءٌ من الشِّرك الممارَسِ في البيئة المكتظَّةِ بهذه الممارساتِ، والَّتي وجدوا لها مختلفَ المسوِّغات الباطلة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ تتجدَّد، بتجدُّد ممارستِهِ المستنكَرةِ

عبَّر بالفعل المضارعِ للدَّلالةِ على استمرارهم، فيما هم فيه منَ الشِّرك المقيت[1]، والمضارعُ ذو دلالةٍ في السّياق العامِّ للآيةِ القائمةِ على الاستفهامِ المكرَّس للتَّقرير مع الإنكارِ والاستبعاد، وقد أمره تعالى أنْ يُجيب بأنَّه لا يشهدُ كما يشهدونَ، بقولهِ: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وهي بصيغة الفعل المضارع أيضًا، ثمَّ أمرهُ أمرًا آخَرَ، بأن يشهدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

بنقيض ما يزعمون ويَتَبَرَّأَ منه بالتَّصريحِ بأنَّ الإلهَ لا يكون إلّا واحدًا، وهو منطق الدّين، ومطلوب الفطرةِ. وفي الختام أمر بأن يعلنَ براءتَهُ ممّا يشركون به من الأصنام وغيرها، وكلُّ ذلك حاصلٌ بالتَّجدُّد الَّذي يتيحهُ الفعلُ المضارع ﴿تُشۡرِكُونَ﴾[1].

مناسبةُ الفاصلةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مـعـبّرة عـن سياقِ التَّوبيخِ، منسجمةٌ مع الدَّلالة

قرَّرتِ الآيةُ الكريمة أنَّ الله تعالى أعظمُ شاهدٍ على صدق النُّبوَّة والقرآن، كما قرَّرت نفيَ الشِّرك عنه ﷺ، وجاءَتِ الفاصلةُ لتُقرِّر هذا المعنى، فهي مثبِّتة للتَّوحيد، ومنزِّهة لله تعالى عنِ الشِّرك، وكأنَّها تقولُ: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له[2]، والفاصلةُ تسهمُ في جمال الإيقاعِ، وانسجام محتوى السّياق، مع الدَّلالةِ المقصودة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشَّهادة) و(الإقرار):

الشَّهادة: بيانُ الحقِّ، والإقرارُ: إثباتُ الشَّيء بالقلبِ واللِّسان

الشَّهادة مأخوذةٌ من مادَّةِ (شَهِدَ)، وهي بمعنى الحضورِ مع المشاهدةِ إمّا بالبصرِ، وإمّا بالبصيرة، والشَّهادة: بيانُ الحقِّ، سواءٌ كان عليه أم على غيرِهِ، وخبرٌ قاطعٌ يختصُّ بِمَعْنًى يتضمَّن ضررَ غير المُخْبِرِ، فيخرجُ الإقرار، وقال الرّاغب: الشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر، ويعبَّر بالشَّهادَةِ عنِ الحُكم، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26]، وعنِ الإقرار مع العلم وثباتِ اليقين، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النّور: 6]، ويعبَّر بها عنِ الإخبار، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: 81][3]. أمّا الإقرارُ؛ فمأخوذٌ من قرَّ في المكان؛ إذا ثبت فيه، والإقرارُ إثباتُ

(1) رضا، تفسير المنار: 7/169.
(2) عقيلان، المناسبة بين الفواصل القرآنيّة وآياتها، ص: 55.
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).

الشَّيء، وقد يكون ذلك الإثباتُ إمّا بالقلب وإمّا باللسان، وإمّا بهما معًا، والإقرارُ بالتَّوحيد وما يجري مجراه، لا يُغني باللِّسان ما لم يُضامَّهُ الإقرارُ بالقلب، ويضادُّه الإنكار[1]. وعلى هذا الإقرار ليس مرادفًا للشَّهادة؛ لأنَّ الإقرارَ يقع في الإثباتِ، وأيضًا أنَّه قد ينفكُّ عنِ الشَّهادة، يؤكِّد هذا ما ذكره الله تعالى من تكذيبهِ للمنافقين في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالواْ: نُقِرُّ إنَّك لرسول الله؛ لم يكذبواْ[2].

(وسط) و(بين):

(الوسط) كلُّ ما وقعَ بين طرفين، و(البين) منَ المكان بين متباينين

(وسط) يُضاف إلى الشَّيءِ الواحد، و(بين) يُضاف إلى شيئين فصاعدًا؛ لأنَّه منَ البَينونةِ، تقولُ: قَعدتُ وسَطَ الدّار، ولا يُقال: قعدتُ بين الدّارين، أي: حيثُ تُباين إحداهما صاحبتَها، وقعدتُ بينَ القوم، أي: حيثُ يتباينواْ منَ المكان، والوسطُ يقتضي اعتدال الأطرافِ إليه، ولهذا قيلَ: الوسط: العدلُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]. زد على ذلك أنَّ الوسطَ شبِّه به كلُّ ما وقع بين طرفين إفراطٌ وتفريطٌ، كالجودِ بين السَّرف والبخل، والشَّجاعة بين التَّهوُّرِ والجُبن، ثمَّ جُعِلَ عِبارَةً عنِ المختار من كلِّ شيءٍ حتَّى قيل: فلان مِن أوسطهم نسبًا[3].

(الوحي) و(الإلهام):

الإلهامُ عِلْمٌ من غير استدلالٍ ولا حجَّةٍ، والوحيُ فيوضُ اللهِ لإبانةِ المحجَّة

الإلهامُ: هو إيقاعُ الشَّيء في القلبِ من علمٍ يدعو إلى العملِ به، من غير استدلال تامٍّ، ولا نظر في حُجَّة شرعيَّة، وقد يكونُ بطريق الكَشْفِ، وقد يحصلُ منَ الحقِّ من غير واسطة الملك، بالوجه الخاصِّ الَّذي له مع كلِّ موجود. والوحي يحصل بواسطة الملكِ،

(1) الرّاغب، المفردات: (قر).

(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/249، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 527.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/328 - 329، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 572.

ولذلك لا تسمَّى الأحاديثُ القدسيَّة بالوحي، وإن كانت كلامَ الله.

والإلهامُ: منَ الكشف المعنويِّ، والوحي: منَ الشُّهوديِّ المتضمِّن لِلْكَشْفِ المعنويِّ؛ لأنَّه إنَّما يحصلُ بشهود الملك، وسماع كلامه، والوحي من خواصِّ النُّبوَّة، والإلهام أعمُّ، والوحي مشروطٌ بالتَّبليغِ دون الإلهام[1].

(الإنذار) و(الإعلام):

إنَّ الإنذار تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافة، وهو إحسانٌ مِنَ المُنذِر، وكلَّما كانتِ المخافة أشدَّ، كانتِ النِّعمةُ بالإنذارِ أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس منَّةً بإنذارِهِ لهم عقاب الله تعالى. أمّا الإعلامُ؛ فهو التَّعريض لأن يعلم الشَّيء، وقد يكون ذلك بوضعِ العلم في القلب؛ لأنَّ الله تعالى قد علَّمنا ما اضطررنا إليه، ويكون الإعلامُ بنصب الدِّلالة[2]، وعلى هذا فالإعلامُ يختلفُ عنِ الإنذار[3].

الإنـذارُ: إعـلامٌ معه تخويفٌ، فـكـلُّ مُـنـذِرٍ مُعلِمٌ، وليس بالعكسِ

(الإبلاغ) و(الإيصال):

الإبلاغُ: إيصالُ ما فيه بيانٌ للأفهام، ومنه البلاغةُ، وهي إيصالُ المعنى إلى النَّفس في أحسن صورة، وأمّا الفرقُ بين الإبلاغ والإيصالُ؛ فالإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنتهي إليه منَ الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمه وعقلِه، كالبلاغةِ الَّتي تَصِل إلى القلب. وقيل: الإبلاغُ اختصار الشَّيء على جهة الانتهاء، ومنه قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التّوبة: 6][4].

الإبـلاغُ أشـدُّ اقـتـضـاءً للـمُنتهي إليه مـنَ الإيـصـالِ؛ لاقتضائِهِ بلوغَ فهمِهِ وعقلِهِ

(الكفر) و(الشِّرك):

الكفرُ: اسمٌ يقع على ضروبٍ مِنَ الذُّنوب، منها الشِّرك بالله، ومنها الجَحدُ للنُّبوَّة، ومِنها استحلالُ ما حرَّم الله، ومنها إنكارُ ما

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 173.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 111.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 12 - 30.

عُلِم مِنَ الدّين بالضَّرورة. أمّا الشِّرك؛ فهو خصلة واحدة؛ هو اتِّخاذ إلهٍ مع اللّه، وقد يُطلق الشِّرك على كلِّ كفر على سبيلِ المبالغة، فعلى هذا يكون كلُّ شركٍ كفرًا، ولا يكون كلُّ كفرٍ شركًا إلّا على سبيل المبالغةِ[1].

الكفرُ: ضروبٌ مِنَ الذُّنوب يُبيّنها الشَّرع، والشِّرك: اتِّخاذُ إلهٍ معَ الله

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 454 - 455، والموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 5/8.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»